المبحث الأوّل

الحريَّة في ظلِّ العبوديَّة لله

«الحريَّة» لفظةٌ تبتهج بها النفوس وقضيتها من أهم القضايا حيويَّةً في العصر الحاضر، ومن أبرز الحقوق الإنسانيَّة المنادى بها دوليّاً.

كان طلب الحريَّة هو الوقود الذي أبرز مواقف الشجاعة أمام الطغاة وألهب حميَّة العزَّة والكرامة أمام موجات الخسف والإذلال، ولطلب الحريَّة قامت حركات التحرُّر من الاستعمار وسائر صنوف الاستعباد.

لكن هذا المفهوم النبيل للحريَّة مسخ لدى فئات من المفكِّرين والمستغلِّين ومن تبعهم من فاسدي الفطر، فتحوَّلتْ لديهم إلى تفلُّت من القيم الإنسانيَّة وإلى انطلاق فوضويٍّ لا يرعى للدين ولا للأعراف اعتباراً أو قيمةً؛ أي أنَّ الحرية أصبحتْ حالةً من التفسُّخ البهيمي للإنسان.

لهذا كان لا بدَّ من تحرير مضمون هذه اللَّفظة بصفتها حاملةً لقضيَّة إنسانيَّة كبرى فطر الله الخلق عليها، وهذا يعني تحريرها من الوجهة الإسلاميَّة لأنها الوجهة المتفقة مع هذه الفطرة.

ولمَّا كانت الحريَّة في الإسلام تنبثق من أعلى قيم الوجود الإنساني وهي العبوديَّة لله؛ لذا فإننا سنحرِّر هذه القيمة -العبوديَّة- أوّلاً بإيجاز مناسب للمقام لنعود فنرى كيف حقَّق تطبيق شريعة الإسلام في المملكة تلك «الحريَّة في ظلِّ هذه العبوديَّة».

العبوديَّة: هي الخضوع والتذلل الذي يشعر صاحبه بعلوِّ المعبود وعظمته، ويعبِّر عن هذا الشعور بصورٍ قوليَّةٍ وفعليَّةٍ من الانقياد والتمجيد ونحوها.

والإنسان عابدٌ بغريزته الفطريَّة ، ومن ثمَّ يلجأ ضرورةً إلى التعبُّد لغيره واتخاذ شيءٍ له هدفاً يمنحه هذا التعظيم والخضوع ، ولهذا كان التديُّن أبرز ظواهر الاجتماع البشري في كل حقب التاريخ ، إذْ لم تخلُ أمةٌ من تديُّنٍ وارتباطٍ بهدفٍ يُمنح تلك الخصائص سواءٌ كانت بدائيَّةً أو متحضِّرةً .

وعلى هذا فإنَّ الخلاف بين البشريَّة لا ينطلق من أنَّ منهم عابدين ومنهم غير عابدين ، وإنما يقوم بينهم في أنواع المعبودات ، وصور التعبير عن العبادة لكل معبودٍ .

وهنا يصف لنا علماء التاريخ والاجتماع الجمَّ الغفير من المعبودات ومن ثمَّ طقوس التعبُّد المختلفة .

وأمام هذه الصور باستطاعتنا أن نقسِّم المعبودات على كثرتها إلى قسمين متمايزين :

الأول : هو الله خالق البشر ورازقهم الذي يصرِّف الكون ويدبِّر الأمر وإليه مرجع الجميع .

الثاني : ما سوى الله من المخلوقات :

- سواءٌ كان من الملائكة أو الأنبياء أو الجن والشياطين .
- أو كان من الأوثان والأصنام التي يصنعها الإنسان ثم يؤلِّهها .
- أو من المبادئ والفلسفات التي يصوغها البشر .
- أو من الأهواء والشهوات التي تتحكَّم في مشاعر الإنسان وسلوكه حتى يكون أسيرها المخلص في الدينونة لها .

وهو تقسيمٌ واضحٌ من حيث التباين بين المعبودين في كل قسمٍ ؛ ﴿ **أَأَرْبَابٌ**

مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[1].

ويتبع هذا التباين اختلافٌ في منهج التعبُّد، وتناقضٌ في آثار العبوديَّة بين كون المعبود هو الله وحده، وكونه سوى الله أيّاً كان ، وليس من شأن هذا البحث أن يتناول آثار عبوديَّة الإنسان لخالقه في شأن تحقيق إنسانيَّته الصحيحة وكرامته وكمال وجوده الكوني، وتوازن جوانب كينونته في التوجه والحركة، وحريته ونحوها من مقوِّمات الوجود الإنساني الأمثل [2]، وحسبنا أن نشير إلى أثر العبوديَّة في تحقيق الصورة الحقيقيَّة للحريَّة التي يهفو إليها الإنسان بدافع إنسانيَّته خلافاً للعبوديَّات الأخرى التي تهوي بأصحابها في دركات الذلَّة والهوان وفقدان الكرامة الإنسانيَّة .

وقبل ذلك نُورد تساؤلاً استكماليّاً لما قلناه عن العبوديَّة وهو : ما مدى إمكانيَّة تحقيق أو تحقق الإنسان بالحريَّة ؟

قالتْ قلّةٌ من المفكِّرين ومنهم القدريَّة في العصر العباسي : إنَّ حريَّة الإنسان مطلقةٌ لا يحدُّها شيءٌ فهو سيِّد قدره لا سلطة عليه لأحد حتى الله .

ولكن أغلب المفكِّرين يقولون بأنه لا توجد حرّيَّةٌ مطلقةٌ لأيِّ إنسان في هذا الوجود ، وغلا بعضهم فقال : إنه لا حريَّة للإنسان أصلاً وإنما يسير في ظلِّ جبريَّة صارمة [3].

لكن عامتهم يقولون : إنَّ الإنسان يملك حريَّةً مقيَّدةً :

---

(١) الآية رقم (٣٩) من سورة يوسف .

(٢) انظر : السلفيَّة وقضايا العصر ، للمؤلف ص ٥٠٨ ، مصدر سابق .

(٣) يقول الفيلسوف ديفيد هيوم : « إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً » . دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد عبد الله دراز ، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص ١٨٢ ، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

- فهي من جهةٍ تابعةٌ لمشيئة الله .

- وهي من جهةٍ أخرى متأثِّرةٌ بالظروف المحيطة بالإنسان منفعلةٌ بها ، ولكن يبقى له بعد ذلك نطاقٌ مفتوحٌ لحركته الاختياريَّة .

ولما كانت مشيئة الله مما لا انفكاك للإنسان عنها أبداً فلم يبق إلا الجهة الثانية التي يتفاعل معها الإنسان مغالباً إياها لكي يحقق أكبر قدر من حريَّته ، لا بل أن يجعل هذه الظروف مساعدةً له على تحقيق هذه الحريَّة ليحقِّق إنسانيَّته بصورةٍ أفضل وأمثل .

ولكن لما كان من غير الممكن أن يوكل لكل إنسان أن يحدد نطاق حريَّته بما لا يتعدَّى على حريات الآخرين كان لا بدَّ من نظامٍ يضع مسالك جريان حريَّات الناس بحيث تتحقق للمجموع بتساو وتكامل وعدلٍ يضمنه هذا النظام .

وهذه هي الحرية في النطاق الاجتماعي التي تطلبها البشريَّة وتهفو إليها المجتمعات في كل مكان .

ولهذا نستطيع أن نقول : إنَّ الحريَّة -في النطاق الاجتماعي- هي « أن تعيش الأمة -أو المجتمع- عيشةً راضيةً تحت ظلٍّ ثابت من الأمن على قرار مكين من الاطمئنان ، ومن لوازم ذلك أن يعيَّن لكل واحدٍ من أفرادها حدٌّ لا يتجاوزه ، وتُقرَّر له حقوقٌ لا تعوقه عن استيفائها يدٌ غالبةٌ ، فإنَّ في تعدِّي الإنسان الحد الذي قضتْ عليه أصول الاجتماع بالوقوف عنده ضرباً من الإفراط ، ويقابله في الطرف الآخر حرمانه من التمتع بحقوقه ليستأثر غيره بمنفعتها ، وكلا الطرفين شعبةٌ من شعب الرذائل والحريَّة وسطٌ بينهما »[1] .

---

(١) الحرية في الإسلام ، لمحمد الخضر حسين ، ص ١٦ ، دار الاعتصام .

أما في الجانب الفردي فإن الحرية تتمثَّل في توجُّه غريزة « التعبد » الملازمة للإنسان إلى معبودها الحق الذي تشعر الفطرة أنه هو مطلوبها الذي تحقق بالتوجه إليه وحده حاجتها النفسيَّة ووجودها الأسمى في هذه الحياة هذا المعبود هو الله وحده الذي خلق الإنسان وفطره على التعبد له وغرس فيه بذرة التوحيد في أصل وجوده(١).

الحرية بهذا المفهوم بجانبيها الفردي والاجتماعي لا تتحقق إلا في ظل العبوديَّة لله – تعالى – وفق المنهج الذي شرعه سبحانه لعباده يعبدونه من خلاله .

فعبوديَّة الإنسان لخالقه إذن لا نقول : إنها تحقق الحرية ، بل نقول : إنها هي الحرية :

- لأنها أداءٌ لحاجة أصيلة في الإنسان ، فهي فعلٌ يفعله لسلامة وجوده كما يشرب الماء ويأكلَ الطعامَ لسلامة وجوده .
- ولأنها تحرِّر الإنسان من كل ألوان العبوديَّات الأخرى التي تهدم الوجود الإنساني للإنسان، أي تهدم كرامته كعبادة الأشجار أو الأحجار أو رجال الأديان أو واضعي النظم البشريَّة وغيرهم .

هذا المفهوم للعبوديَّة هو ما يقرره القرآن : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾(٢).

---

(١) قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ...** ﴾ الآية رقم (١٧٢) من سورة الأعراف .

(٢) الآية رقم (٦٤) من سورة آل عمران .

وهو ما فهمه الصحابة حينما اتجهوا في فتوحاتهم لتحرير خلق الله من استعباد الطواغيت كما في قول أحدهم: « اللهُ ابتعثنا ليُخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[1].

وهو ما أدركه حتى غير المسلمين من بعض زواياه كما في قول "بارتلمي سانهلير": « إنَّ الإسلام قد أحدث رقيّاً عظيماً جداً، فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة أخرى غير هذه الحياة، ثمَّ إنه بتحريمه الصور في المساجد وكل ما يمثِّل الله قد خلَّص الفكر الإنساني من وثنيَّة القرون الأولى . . . »[2].

لقد حقَّق الإسلام هذه الحريَّة المجيدة من خلال أصوله العقديَّة وأحكامه الشرعيَّة وقيمه السَّامية، فأشرقت النفوس بعد ظلمتها، واتسعتْ آمال الناس، وعظمتْ هِمَمُهُم وتعالتْ في دواخلهم وحركتهم ملكة الاقتدار على الإبداع وتقديم ما ينفع البشَريَّة، وبتلك الحريَّة استنارت العقول فَسَاد العلم، وفاضت الحكمة، فقام العدل وتكاملت الخلال المحمودة فقامت للأمة حضارتها الشامخة.

ولمَّا ضعفَ التزام الأمة بالعبوديَّة الحقَّة لربها والتزام منهاجه الصحيح دبَّ فيها الضعف، وكثرتْ فيها الاختناقات والقيود التي صارتْ تفرضها على نفسها تقليداً وعصبيَّةً في مجال الفكر وعبادةً وتقديساً للأضرحة ومدَّعي

(١) الكلام لربعي بن عامر أمام "رستم" قبل وقعة القادسيَّة.

(٢) من قضايا العصر ومشكلات الفكر، لأنور الجندي، ص ١٧١، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة.

الولاية والعلم ، وتحاكماً إلى الأعراف القبليَّة وقوانين أهل الكفر ، فعادت تلك الأغلال التي وضعها الإسلام عنهم تكبِّل كثيرين منهم أفراداً ومجتمعات .

وحينما قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تبعث الدين الصحيح وتوجِّه بعقيدته وأحكامه حياة الناس بدأتْ تباشير انطلاقةٍ إسلاميَّةٍ جديدةٍ تفكُّ تلك الأغلال .

وحينما عادتْ السيادة للملك عبد العزيز على معظم الجزيرة العربيَّة في بدايات القرن الرابع عشر الهجري التزم بهذا المنهج -أقصد المنهج السَّلفي وطبَّقتْ المملكة الشريعة الإسلاميَّة ، فكان من آثار ذلك فيما نحن بصدده :

* **رعاية الحاجة الفطريَّة للناس** في تحقيق عبوديتهم لله وذلك بتيسير أداء العبادات التي تصلهم بالله وتطهِّر نفوسهم وأخلاقهم من الأهواء والعفن الخلقي ، وبالذات في شعائرها الكبرى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

لقد تمثَّلتْ رعاية الدولة لهذه الحاجة وهذه العبادات في صورٍ عديدةٍ منها :

- حثُّ الناس عليها وتبصيرهم بالصور السليمة لأدائها من خلال مناهج التعليم والبرامج الإعلاميَّة ، والتوجيهات المرتبطة بمناسبات هذه العبادات كرمضان والحج من خلال كلماتٍ يوجِّهها القادة أو كبار العلماء لتوجيه المسلمين بشأنها .
- إعمار مواقع هذه العبادات المتمثِّلة بالمساجد والمشاعر المعظمة .

من أعظم آثار إسلاميَّة المجتمع السعودي تعالي التنافس بين الدولة والشعب في بناء المساجد ومرافقها وخدمتها ، حيث بُذلتْ أموالٌ طائلةٌ في هذا المجال، ولأن القضيَّة لا تأخذ المنحى الوطني فقد امتدَّ هذا التنافس إلى أرجاء العالم فبرزتْ المملكة العربيَّة السعوديَّة بصفتها الأولى

التي لا تدانيها دولةٌ أخرى في بناء المساجد والمراكز الإسلاميَّة في مختلف أنحاء العالم(١).

ومثل إعمار المساجد : الجهود الضخمة التي بُذلتْ في خدمة الحرمين الشريفين ومدينتيهما ومشاعرهما، وأعظم تلك التوسعة الكبرى التاريخيَّة للحرمين كليهما بما اشتملتْ هذه التوسعة من خدمات مرافقة كالتكييف والمواقف . . . إلخ .

ولئن كانت هذه الجهود ثمرةً لالتزام الدولة بتطبيق شريعة الإسلام فإن غايتها تيسير قيام المسلمين بأداء العبادات وتشجيعهم عليها وبالتالي تحقيق إسلاميَّتهم .

- تنشيط الناس لأداء هذه العبادات لا من خلال الحثِّ عليها وإعمار بيوتها فقط، وإنما باعتبارها جزءاً من نظام المجتمع وسمته الذي ينبغي أن يحافظ عليه وأن يؤخذ على يد من يستهدف هدمه أو الاستهتار به من خلال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء الشرعي وموقف المجتمع ككلٍّ .

وتتجلَّى قيمة هذه الخدمة المتمثِّلة بتيسير أداء العبادة ودعمها إذا قارنَّاه بمجتمعات أخرى تنتسب إلى الإسلام ، ولكنها للأسف مقصِّرةٌ في هذا المجال بل إنها تحارب هذه العبادات وتجعل ارتياد المساجد وممارسة الشعائر من قبل شخص مَّا فعلاً محرَّماً يعاقب صاحبه ويتتبع بكل صنوف الاضطهاد والإبعاد . ولهذا تشكو المساجد قلَّة روّادها وقد تُغلَق أو تحوَّل إلى مرافق أخرى .

*** تحرير الناس من العبوديات الوثنيَّة :**

وهذه من لوازم الأولى ، فإنه كلما تمكَّنت العبوديَّة لله من قلب العبد زاد تحرُّره من العبوديَّات الأخرى .

---

(١) انظر مثلاً : مجلة الفكر الإسلامي، عدد (٥) شعبان، سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٦، ٤٧ . والمملكة العربية وهموم الأقليات المسلمة في العالم ، لعبد المحسن الداود، ص ٢٣، ١٤١٣هـ.

ولقد كان من أهمِّ آثار التزام المجتمع السعودي بالإسلام وفق المنهج الصحيح أن تحرَّر الناس من تلك العبوديات التي كبَّلتْ الناس فترةً من الزمن وما تزال تكبِّل عقول ونفوس كثيرٍ من المسلمين في كثيرٍ من مجتمعات المسلمين التي لم تقم فيها دعوات عقديَّة تصحِّح لهم مفهوم الدين الحق .

لقد طهَّر الله السعودية من الأوثان والقباب المقامة على الأضرحة للتعبد ، وحارب المجتمع قادةً وعلماء ومسؤولين ودعاةً كلَّ صنوف الاستغلال واختراق العقول عن طريق الدجل والكهانة والعرافة والسحر ونحوه .

هذا من جهةٍ .

ومن جهة أخرى فإن خضوع الحكم والقضاء وسائر أنظمة الدولة لأحكام الشريعة الإسلاميَّة التي جاء بها الوحي من عند الله قد حرَّر مواطن هذه الدولة من عبوديَّة الناس لبشرٍ مثلهم ؛ لأن الخضوع هنا هو خضوعٌ لله وحده .

أما الحاكم فهو منفذٌ لشرع الله ، وطاعته إنما هي طاعةٌ لله في الأصل ؛ ولهذا لو أمر الحاكم بما يخالف الشرع فلا طاعة له « لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق » .

وأمَّا القاضي والمفتي فليسا مُشرِّعين إنما هما فقط مبيِّنان للحكم الشرعي بحكم أنهما أقدر من غيرهما على استخراجه من نصوص الشريعة ومقاصدها ، فهما يعلنان أنَّ هذا الحكم -قضاءً أو فتوًى- هو أقرب شيءٍ إلى الشريعة بحسب قدرتهما العلميَّة .

وهكذا فالحاكم والقاضي والمفتي وتبعاً لذلك الداعية ومدرِّس العلم الشرعي ونحوهم تتبلور جهودهم في ربط الناس بشرع الله وإقامة الحق في حياتهم .

أمَّا في غير الدولة المسلمة فإنَّ خضوع الناس للقانون والدستور إنما هو خضوعٌ لمن وضع موادَّهما وهو بطبيعة الحال بشرٌ ، مما يعني عبوديَّة هؤلاء الخاضعين لها لهؤلاء كما أشرنا إلى ذلك في مقامٍ سابق واستشهدنا عليه بحديث عدي بن حاتمٍ في قول الرسول ﷺ له : « إنهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم فتلك عبادتهم »(١) .

إنه فارقٌ جليٌّ بين أهل الإسلام وغيرهم .

عبوديَّةٌ لله ، ومن ثمَّ تحررٌ من كل صور الوثنيَّة والعبوديات للبشر أو لما دون البشر

بالنسبة للمسلمين .

واستنكاف عن العبوديَّة لله ومن ثمَّ السقوط في حفر العبوديات المتنوِّعة للأهواء والدجالين ورجال الدين والساسة .

بالنسبة لغير المسلمين .

وحينما استعمر الغرب بلاد المسلمين استطاع أن ينحرف بقوَّته وضعفهم بجزءٍ من حياتهم نحو عبودياته ، ففرض فيهم قوانينه الوضعيَّة ، وحارب بقايا الحكم الشرعي في أوطانهم ؛ لأنه يعي أنَّ خضوع المسلمين لقوانينه هو في حقيقته خضوعٌ له واستخذاءٌ أمامه .

ولهذا فإن الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلاميَّة التي يكافح في سبيلها المسلمون في كل مجتمعٍ من مجتمعاتهم الآن تعني شيئاً أبعد من قضيَّة « قوانين بدل قوانين » إنها تعني لديهم -وفي حسهم الإيماني- التحرر من العبوديَّة لغير الله وتجريد العبوديَّة له وحده ، أي إقامة الإسلام الصحيح في حياتهم الاجتماعيَّة .

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ، حديث رقم [٣٠٩٤] .

وفي هذا تبرز المملكة العربيَّة السعوديَّة في تطبيقها لشريعة الإسلام بصفتها دولة ومجتمع التحرُّر من العبوديَّة لغير الله ، وعبادته وحده في النظام والتشريع .

كما في الاعتقاد والتوجُّه والدعاء والتضرُّع .

* **دعم حريَّة التفكير في الكون :** لقد بيَّنَّا فيما سبق أنَّ القوى التي تسعى إلى استعباد الإنسان دون الله تسعى لخنق العقل الإنساني عن التفكير فيما حوله وبالذات في الكون المحيط به؛ لأن هذه القوى سواء كانوا من السحرة أو مدَّعي علم الغيب والتنجيم أو رجال الأديان الوثنيَّة يصوِّرون أنفسهم أمام الناس على أنهم أصحاب قدرات تفوق الآخرين مما يجعلهم مؤهَّلين لمعرفة أسرار الكون ومخاطبة قواه الكبرى كالنجوم والأفلاك ، كما يصوِّرون أحداث هذا الكون بأنها كرامات لهم، أو أنَّ لهم سبيلاً إلى إحداثها أو إيقافها ، وكل هذه الدعاوى تتهاوى إذا استطاع العقل أن يكتشف سنن الكون ويعرف أسباب تحوُّلاته ويتفاعل معه تفاعلاً مباشراً؛ ليستثمر خيراته .

لقد عاش العقل الغربي قروناً متطاولةً أسير معلومات ناقصة ومشوَّهة عن الكون كانت تفرضها عليه الكنيسة بصفتها ديناً لا معنًى للتفكير فيها إلا أنه تشكيكٌ في الدين وزندقةٌ يحاكم صاحبها ويُقضى عليه .

ولهذا حينما انْفَلَتَ العقل الغربي في عصر النهضة من هذا الإسار وجاب الكون بملاحظاته وتجاربه واكتشف جريمة ذلك الإسار الذي كان يخنقه لم يتحمل الصدمة فَغَلاَ في العقل وألَّهَه بدلاً عن ذلك الدين الذي نفر منه، وجعل نتائج هذا العلم ونظريَّاته -أو وهذا هو الحق النظريات التي ينسبها إليه- مضادَّةً لذلك الدين، بل إن شرعيَّتها تتدعَّم بهذه المضادَّة مما جعله يقع في مثل ما فرَّ منه فيأسر نفسه مرَّةً ثانيةً بإسارٍ بديلٍ .

أمَّا في عالمنا فإن ظهور الإسلام كان عامل تحريرٍ للعقل وكسرٍ للحواجز المقامة بينه وبين الكون بالدعوة إلى النظر فيه وتأمل سننه والانتفاع بمنافعه، مما أدَّى إلى بعث حضارة الإسلام المشهودة، ولكنَّ المسلمين صاروا بعد قرون الازدهار يتراجعون شيئاً فشيئاً عن التزام دينهم ووعي تعاليمه حيث صارتْ تضيق آفاق عقولهم، وتشعر بالرهبة أمام فواتح المعارف الجغرافيَّة والفلكيَّة والطبيعيَّة، وكثيراً ما فسِّرتْ هذه الرَّهبة بأنها حساسيَّة الشعور الديني ويقظة الإيمان أمام الكفر والضلال .

لقد حلَّت كثيرٌ من المجتمعات هذه الأزمة وهي تسعى في هذا العصر للانفتاح على المعارف العصريَّة بآفاقها الواسعة بتبنِّي الأسلوب الغربي في عصر النهضة بالانفلات من الدين وتبنِّي الرؤى الغربيَّة في فلسفات العلم، وتأكيد التصوُّر الغربي عن الدين بأنه من أسباب حجب العقل واغتيال الإبداع، مما أوجد لدى كثيرٍ من أبناء المسلمين الذين تعلَّموا تلك العلوم تصوُّراً مشوَّهاً عن الإسلام ومنهجه العقدي والعلمي .

أمَّا في المملكة العربيَّة السعوديَّة فإنَّ هذه الأزمة حُلَّتْ بالإسلام :

- بتطهير العقيدة من التصوُّرات الخرافيَّة عن الكون وحركته .
- وبكشف زيف دعوى لا إسلاميَّة المعارف الكونيَّة، ودعوى حصر المعرفة التي يحتاجها الإنسان بالمعرفة الدِّينيَّة وحدها .
- وبمقاومة الانغلاق الفكري الذي يجعل صاحبه يتنكَّر لكلِّ شيء جديد لم يعهده في دراساته التي ورثها عن أهله أو أساتذته ونتيجةً لهذا المسلك الحازم المرتكز على أساسٍ إسلاميٍّ انطلقت الحركة العلميَّة -في مجال الدراسات الكونيَّة- بخطًى ثابتة وسريعة لا يشعر فيها الطالب أو المدرِّس

أنه يعيش تناقضاً بين حياته العلميَّة وتخصُّصه وبين إيمانه وتَدَيُّنه، بل إنه يشعر أنَّ مسلكه العلمي وأنَّ سعيه في طلبه جزءٌ من دينه؛ لأنه ينفِّذُ ما أمره الله نظراً في الكون واستنفاعاً منه وخدمةً لأمَّته في هذا الثغر المهمِّ .

إنَّ إيمانه بالله الذي وجَّهه في القرآن إلى التأمُّل في الكون للشعور بجلال خالقه يغريه بالإيغال في تطلُّعه المعرفي في هذا المجال؛ لأنَّ زيادة اكتشافه تعني زيادة تعظيمه لله وشعوره بعظمته .

وهذا بلا ريب لا يتحقَّق إلا بكون إيمان الشخص قائماً على المنهج السَّلفي الصحيح الذي عمادُه مقررات الوَحْيَيْن أمَّا الذي يقوم اعتقاده على فلسفات علم الكلام التي صاغتْ أدلتها وقواعد هذه الأدلَّة بناءً على التصوُّرات الفكريَّة التي كانت سائدةً في العصر العباسي وما بعده، فإنه من السهل أن يتزعزع إيمانه إذا اكتشف أن بعض هذه الأدلَّة أو قواعدها مجرد مواضعات فكريَّة تكذِّبها الكشوف الكونيَّة المعاصرة .

* **الكرامة الإنسانيَّة :** تطبيق الإسلام في المجتمع بتعبيده الناس لخالقهم وتحريرهم من هيمنة الآلهة المزيَّفة يرتفع بهؤلاء الناس إلى أفق الإنسانيَّة الكريمة ، حيث يشعرون بهذه الكرامة من خلال :

- ارتباطهم بخالقهم وخالق الكون ارتباطَ حبٍّ واستمداد وولاء .
- وارتباطهم بالوجود من حولهم جمادات ونباتات وحيوانات ارتباط سيادةٍ عليها، وإقامةً لمنهج الله فيها .

والجامع بين هذين الارتباطين هو ذلك الشعور النبيل القائم في وعي الإنسان موحياً له دائماً بموقفه المتميِّز في هذا العالم، إنه شعور « المسؤوليَّة » أو « حمل الأمانة » التي عجزتْ عن حملها الكائنات الأخرى وتصدَّى لحملها الإنسان .

إنَّ « المسؤوليَّة » تبدو لبعض الناس مناقضةً للحريَّة التي يتصوَّرونها اختياراً مفتوحاً لا معقِّب له ولا حساب عليه ، وهذا التصوُّر مشوِّهٌ للحريَّة أو هي « الفوضى » باسم الحريَّة ؛ لأن الحريَّة الحقَّة متلازمةٌ مع المسؤوليَّة بل هي في الحقيقة نابعةٌ منها ؛ لأن الإنسان إنما أعطي الحريَّة لأنه حمل المسؤوليَّة .

أمَّا الأمور التي لا حريَّة له فيها كحركات نَفَسه وهضمه ونبضات قلبه وارتقائه إلى مرحلة الشباب وعوده إلى مرحلة الكهولَة فإنه غير مسؤول عنها ، فالمسؤوليَّة إذنْ مرتبطةٌ بالحريَّة ، وأقصد بها - بالذات - المسؤوليَّة الكبرى التي حملها الإنسان بفطرته وشريعة خالقه .

« إنَّ الشعور بالمسؤوليَّة شعورٌ نبيلٌ لأنه شعورٌ بالاستقلال والتحرُّر من أسر الطبيعة ، شعورٌ بالقدرة على تغيير معالم الأشياء وعلى معالجتها بالعزيمة والإرادة المبتكرة ، شعورٌ بالكرامة التي كرَّم الله بها بني آدم وبالفضل الذي فضَّلهم به على كثيرٍ من خلقه »[1] .

ومن أبرز صور الكرامة الإنسانيَّة التي تحقِّقها العبوديَّة لله من خلال مسؤوليَّته إزاء تطبيق منهج الله ، الوفاء بحقوق مطالب الكيان الإنساني الماديَّة والروحيَّة ، ومطالبه الروحيَّة متمثِّلةٌ بعبادته لله وتمثُّل القيم الإنسانيَّة في وجوده وعلاقاته ، وهي الجانب الأبرز الذي يحقق تطبيق الإسلام في المجتمع للناس سموّهم الإنساني وكرامتهم البشريَّة ، وشعورهم بموقعهم المتميِّز والهادف في هذا العالم .

أمَّا حينما يُحرم المجتمع من هدي الله ، أو يعزف عنه فإنه يفقد هذه الكرامة ، وتنسحق إنسانيَّته تحت وطأة النظم والفلسفات الجائرة ، وواقع

---

(١) المسؤوليَّة في الإسلام ، لمحمد دراز ، ص ١٩ ، ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية ، ١٣٧٩هـ .

عصرنا شاهدٌ صارخٌ على هذه الحقيقة ، حيث ارتدَّتْ فئامٌ من البشريَّة نحو البهيميَّة ، وصارتْ تعيش في أهدافها وسلوكها في مستوىً حيوانيٍّ أو دون ذلك تحت وطأة النظم العلمانيَّة والاتجاهات الماديَّة التي أهدرتْ جانب الإنسان الرُّوحي وضخَّمتْ جانبه الماديِّيْ الذي انطلق في غياب الروح والضمير الإنساني على شكل شهوات عارمة ومصالح ماديَّة نفعيَّة ، وتحلل من القيم والأخلاق ، وإيغال في خسائس الملذَّات ، وما يزال العالم اليوم في ظلِّ الحضارة الغربيَّة يدفع الناس في هذا المنحدر الذي يعترف مفكِّرو الغرب ذوو البصيرة التاريخيَّة ، والحدس الإنساني أنه سيرٌ إلى الهاوية وتدميرٌ للحضارة .

وأكثر المجتمعات الإسلاميَّة تسير في تبعيَّة مؤسفة خلف الغرب في انحداره ، يدفع هذه المجتمعات إعلامٌ مُضلِّلٌ ونظمٌ تحارب الإسلام أو تُهمِّشه ، وموجات من الهوس العارم الذي يستتبع الناس منصرفاً بهم نحو الماديَّة على حساب دينهم وقيمهم وإنسانيَّتهم .

والمجتمع السّعودي وإن لم يكن بمعزل عن هذه المجتمعات وتأثيرها والتأثير الغربي إلا أنه بالتزامه الإسلامي وتنشئته أبناءه على منهج الله ، ومقاومة الفلسفات الماديَّة ، والإباحيَّة ، وانتشار العلم الشرعي حفظ هذه الكرامة من الذبول ، وأبقى الشعور بالمسؤوليَّة الإنسانيَّة أمام الله متوقِّداً في دواخل الناس ، وقد تعرض لبعض الناس حالات غفلة واستلاب نحو الضلال ، ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يعيد هؤلاء إلى صوابهم ورشدهم .

* وفضلاً عمَّا سبق **فإن للحرية المنبثقة من العبوديَّة حقوقاً كثيرةً** على الإنسان وله ، يعدُّ التفريط بها إهداراً لحقِّ الحريَّة الممنوحة له ، ومن ثمَّ تفريطٌ بالمسؤوليَّة التي يحملها ، ومن ذلك مثلاً :

- حقُّ المساواة ، حيث يتساوى الناس في المجتمع المسلم في عبوديَّتهم لله وفي علاقاتهم فيما بينهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١) وفي التزامهم بالحقوق المشروعة .

وحق المساواة متبادلٌ بين أعضاء المجتمع الإسلامي، فهم سواسيةٌ حكّاماً وعلماء وعامةً ، لا يجوز لأحد أن يخرق هذا الحق بتعال واستعباد للآخرين ، كما لا يجوز له أن يخرقه باستخذاء وعبوديَّة لسواه .

ولا يدخل في هذا تفوُّق الكفاءة الشخصيَّةً لإنسانٍ بعلمه أو خبرته أو أخلاقه لأنها معايير مفتوحةٌ للجميع ، فمن تقدَّم بها على غيره سبق فضلاً عن أنَّ سبقه لا يعني استكباره على الآخرين .

- حق الشورى ، وهو حقٌّ على الحاكم أن يطلبه من أهله المؤهَّلين له ، وحقٌّ للناس ومن ثمَّ عليهم يحقِّقون من خلاله حريَّتهم ويؤدُّون مسؤوليَّاتهم تجاه الدولة بتقديم رؤاهم فيما يهمُّ أمرها ويُعْلي شأنها ، سواءٌ تمثَّلوا في هيئات منظَّمة أو أفراد يُستشارون، أو يشيرون من أنفسهم ابتداءً على من يعنيهم الأمر من المسؤولين .

- حقُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يحقِّق فيه المسلم في مجتمعه تلبية أمر الله بهذه الشعيرة ، ولحريَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابط في أسلوب تنفيذه للشخص العادي ، وللمكلَّف بالاحتساب، وللجهات الأمنيَّة كلٌّ بحسبه، وليس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -كما يتصوَّر بعض الناس- تعدِّياً على حريَّات الآخرين ؛ لأن الأمر والنهي في حقيقته هو ردٌّ لذلك الإنسان نحو نطاق الحريَّة الصحيح حينما اخترقه نحو ما يضرُّه .

---

(١) الآية رقم (١٠) من سورة الحجرات.

لو رأى رجلٌ صبيّاً يفتح علبة سُمٍّ ليأكل منها ثم نهاه عن ذلك لم يكن متعدِّياً على حريَّته ، وإنما منقذاً له من الهلاك في عرف كلِّ الناس ، وهذا تماماً ما يمارسه الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في المجتمع المسلم الذي يسلِّم جميع أفراده ابتداءً بأنَّ المعاصي وكذلك ترك الواجبات مهلكةٌ للإنسان حتى وإن أزاغ بعضهم الشيطان نحو فعل منكر أو ترك واجب .

* ومن خلال ما مرَّ اتَّضح لدينا أنَّ الحريَّة بمفهومها المزيَّف الذي تروِّجه بعض الفلسفات والنظريَّات، وتدعُّ الناسَ إليه جهاتٌ مشبوهةٌ ووسائل إعلاميَّةٌ خبيثةٌ ، هذا المفهوم الذي يتمثَّل في الانفلات من إطار الدِّين وخرق القيم الخلقيَّة والتحلُّل من كلِّ الأعراف الإنسانيَّة السَّليمة في العلاقات ووسائل الكسب والإنفاق ، ومسائل الجنس وموضات الأزياء والتجميلات الجسميَّة وتحويل الجنس . . . إلخ ، تبيَّن لنا أنَّ الحريَّة بهذا المفهوم لا مقام لها في مجتمعٍ تحكمه شريعة الله ، ويقيم أهله في نفوسهم وسلوكهم منهجه المستقيم وحدوده الواضحة ، وتتولَّى السلطة فيه بهيئاتها المتعدِّدة -هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحاكم الشرعيَّة ونحوها- ردع من تضعف نفسه عن ضبطه على الحق ، ووقاية المجتمع من شروره التي لا تقف عند حدود شخصيَّة، وإنما تصبح وباءً ينتشر في السَّاحة إذا لم يُقضَ عليه في مهده .

إنَّ سنَّةَ الله في الخلق أنَّ الشرور تزاحم الخير والحقَّ ، وتتقافز بين الناس في كل مجتمعٍ حتى مجتمع الخير والصَّلاح تبحث عن ثغرةٍ تندسُّ منها في جسم هذا المجتمع .

والمجتمع السُّعودي بتوجُّهه الإسلامي شعباً ودولةً يحتلُّ من حيث الطهارة من موبقات تلك الحريَّة المزيَّفة الموقع الأول بين المجتمعات الإسلاميَّة

التي اخترقتْ كثيراً منها دعوات هذه الحريَّة ، بل أغرق الاستعمار ثم الحكومات الثوريَّة البديلة عنه هذه المجتمعات المسكينة بأرجاسها ، فأبيحتْ الخمور علناً للناس ، ووجدت الدّعارة العلنيَّة المدعومة ، ونوادي العراة ، وحُرِّمَ الزواجُ بأكثر من واحدةٍ ، وفتح مجال المخادنة والصداقة الخليعة . نسأل الله العفو و العافية .

obeikan.com